

٥٧٣ (المينطوريني) الشماس انطانيوس ابن الشيخ ابي الخطار الشدياق من بيت الحاج عبدالنور من قرية عين طورين من جبة بشري. صُنّف تدرّجاً مُخطّأً في ٢٠ شباط ١٨١٩. منه نسخة حسنة في مكتبتنا الشرقية ونسخة اخرى عند الحوري الماروني راعي قاع الريم. صنّفه مؤلفه فواند شتي عن اعيان لبنان واديرته الخ (لها بقية)

الاب برزدوس فون اليسوعي الانكليزي

(١٨٤٧-١٩٢٢)

بقلم الاب رفائيل غله اليسوعي

في صباح ٣١ تشرين الثاني من العام المنصرم فاضت روح راهب يسوعي انكليزي طَبَّقَ صِبْغَ فصاحته ولاسيما فضيلته وحنانه نحو حصار القرم كل ارجاء بريطانيا العظمى بل كل البلاد الناطقة بالانكليزية من الولايات المتحدة غرباً الى الهند شرقاً ومن اسكتلندا شمالاً الى رأس الرجاء الصالح جنوباً. لسري قلباً وجد على ظهر البسيطة في الاعصر المتأخرة رجلٌ حظي بمثل ذلك النفوذ العجيب على ملايين من ابناء وطنه والاجانب، نفوذٌ ذو صبغة دينية محضة كما يليق براهب وقف حياته على خدمة الله عز وجل والانفس المنتدأة بدم مخلص العالم ذلك الرجل العظيم بين اعظم الرجال هو الاب برزدوس فون توني بلندن عن ٧٥ عاماً قضاها في عمل اخير ودعوة الناس الى الصلاح. فانتشر مناه كالبوق الحاطف في كل انحاء تلك العاصمة الحارة ضمن حدودها نحو ستة ملايين من البساد بل كُتب ذلك الخبر الناجع بخط غليظ على اوراق كبيرة ألصقت في شوارع المدينة. ثم ان كل الجرائد الانكليزية - ومن يحصياها؟ - نشرت فوراً بين الملا بلهجة الاسف الشديد نبال الزم القادح الذي اصاب انكلترة جماعاً بفقد واحد من اعظم

واشهر ابناؤها . كل هذه الظروف التادر اجتماعها في حياة ووفاة شخص واحد ولو من علية القوم قد استهضتنا لكتابة بضع صحائف في سيرة ذلك الرجل العظيم لما فيها من العبرة لكل معتبر والبيان الصالح لكل كاثوليكي . سنبتط الكلام اولاً في حياة القيد وثانياً في اسرار فصاحته الرائعة معه ونحتم المقال بصحيفة موجزة في ذكر بعض فضائله

١ سيرة الاب فون

﴿اسرته﴾ وُلد برنزدس فون (Vaughan) في ٢٠ ايلول ١٨١٧ بمجزيرة جيرزي (Jersey) من عائلة كريمة الحب والنسب تُعدّ من اشرف واقدم العائلات الشهيرة في انكلترة . وهي من بقية الأُسَر التي ثبتت بين الانكليز على اثنائها الكاثوليكي وحفظت على ترالي اجيال الجور والاضطهاد . امتاز والده الكارولنيل فون بآثره في حرب القويم . أما والدته فكانت آية في التقوى والعطف على الفقراء والحسن نحو اولادها الاربعة عشر وكان برنزدس الحادي عشر بينهم . ومن العجب العجيب ان تلك الامّ المثلى طالما التمت من رب الجلال ان يستخص بخدمته ابناها القسمة وبناتها الحس . وما هو اعجب من ذلك ان الاله الرحوم استجاب تلك الصلاة السامية فقد ترهّبت في الواقع كل بناتها وانقطع خدمة المولى كل البنين الا واحداً منهم . والكبر منهم هو هربرت الذي تنازل لاختيه الرابع عن حقوق بكريته وارتقى فيما بعد الى منصب كردينال ورئيس اساقفة وستمنستر . واخوه الاول صار رئيس اساقفة يذني في أستراليا . وانتظم الرابع في سلك الاكليروس العالمي فمات برائحة القداسة . ولا يزال اصغرهم في قيد الحياة وهو حاضراً اسقف بيتربوليس . فإيم الحق ان مثل تلك العائلة لجدير بان يُخلّد على صفحات التاريخ بل في سويداء القلوب ا

﴿نشأته﴾ كانت والدة برنزدس شديدة العناية بتربية اولادها وترسيخ خطراتهم الاولى في طريق الفضيلة الوعرة . ذكر ابنها عنها قائلاً : « كانت تأتي الى غرفتنا قبل رقادنا ليس بالواكاه وضروب الحلوى بل بافكار الله . وبدلاً من قصص الجنيات كانت تروي لنا سير القديسين . وكانت تُدني مراراً ساعتها من اذني وتقول : « اسع

صوت حركتها لكن هذا الصوت سيهدأ يوماً وكذلك قلبك سيفقد ايضاً عن الحثقان . فحيثنذ ستذهب الى السماء ان عشت صالحاً . وكانت تلقيني هذه الابتهالات القويّة : « يا يسوع الحلو اني اهبك قلبي وروحي . يا مريم القديسة كوني لي والدة . يا ملاكي الحارس العزيز اسهر عليّ نهاراً وليلاً »

قال ايضاً عن والدته السامية المواطن : « قد اعتادت في زيارتها للفقراء ان تكيل اليّ حنل ما أعد لطعاما من الحساء فتوزعه عليهم . وكثيراً ما كانت تبايح علي الساكين ليذعوها ان تنظف مساكنهم وترتب أسرّتهم . وكانت تعتبر كل أجرانها بصفة اخوة واخوات لها ! »

﴿وردوس﴾ هكذا نشأ برزدوس تحت كنف تلك الام المسيحية الكاملة ولأ أن الاوان أدخله ابواه مدرسة اليسوعيين الخاصّة باشراف الانكليزي في ستونيهورست (Stonyhurst) فتلقى فيها العلوم مدة سبع سنوات . وفيها اظهر من اول وهمة شخصيّة الفريدة وسليقته المطبوعة على الاستقلال في كل شيء . مثال ذلك ان احد التلامذة سأله عند دخوله في المدرسة عن اسمه فاجابه فوراً بدون ادنى تردد : « اسي برزدوس فون وفي نيتي ان اصير يسوعياً » . واثنا سني دراسته لم يبد منه ميل الانكليزي الشديد الى الاماب الزبانية بل كان جُلّ مبتناه ان يخلو بنفر من خلفه فيتجاذب وأيامهم اطراف الحديث فيقتضي معهم زمن الراحة بالانكاهات والاحبار المطربة . وكان يتاز بين اقربائه ببراعته العجيبة في التثليل ولا يزال ذكره حياً حتى يومنا في مسرح مدرسة ستونيهورست

﴿الراهب﴾ ترهب برزدوس في اوخر سنة ١٨٨٦ فكان مع حوصه على العمل بكل قوانين الرهبنة اليسوعية اللطف البتدين حديثاً واهتمهم روحاً واشدهم بشاشة وطرباً . فكانت صفاته هذه تحييه الى رفاقه بل تجذبهم جذباً لطيفاً الى خدمة الله بنشاط وفرح . وقد حفظ الى النسبة الاخيرة من حياته ميلاً شديداً الى المفاكهة السارة التي لاغبار عليها . ومن فكاكاته انه ترّياً ذات يوم يزي رابع بروتستاني ودخل في دير من اديار الآباء اليسوعيين على احد الرهبان لحوته الطاعنين في السن فاجاله هذا في كل انحاء الدير كأنه غريب حتى بلغنا باب الدير فعرّفه بنفسه ومانقاً متهمةً في

﴿الاستاذ﴾ بعد سيامة الاب فون كاهناً في ١٨٨٠ ارسله الرؤساء الى مدرستا

الواقعة في ضواحي لندن واسمها مدرسة بومنت (Beaumont College) يتهدّب فيها اولاد اشرف العائلات الكاثوليكية. فحدث اثناء اقامته هناك ان احد المجانين اطلق النار على الملكة فيكتورية فلم يُصعبها فاسرع الاب فون الى القصر الملكي الكائن على مقربة من المدرسة وقدم لجلاسة الملكة ثم اني تلامذتنا لسلامتها من ذلك الخطر العظيم. فبلغ تأثرها من ذلك اللطف الى انها تنازلت وزارت المدرسة فاستقبلت بما يليق لثلاثها من الكرامة والاجلال وقد عادت تلك الزيارة على الرئيس والتلامذة بفوائد لا تحصى فاصبحت تلك المدرسة المشرفة بزيارة اعظم ملوكات الارض بل ملوكها في عداد اشهر المدارس الانكليزية. وكان الفضل في كل ذلك لقطنة الاب فون ورقة شعوره.

✽ الرئيس والواعظ ✽ أرسل المترجم سنة ١٨٨٣ بصفة خادم رعيّة الى احدى كنائس منشتر وفي ١٨٩٣ عين رئيساً لمدرستنا هناك. فكان في تلك الاعوام يرقى المنبر كل يوم احد تقريباً فتألب الجماهير لاسماع اقواله الخلاصية الزائمة البالغة وفي اثناء سنة ١٨٩٥ القى عشر محاضرات في حقوق الكنيسة الكاثوليكية تفقيداً لمزاعم الاسقف البروتستاني مورهورز فكان لها رنة شديدة في كل انحاء البلاد مع ندرة الامر بين قوم معروفين بالسكينة وبرودة المزاج. وقد بلغ تحمّس الحاضرين في احدى هذه الخطب الى ان قام نفر منهم وحلوا حضان عربته التي ركبها والغوا عليه في ان يجرد بركيته الى محل اقامته

وفي السنة ١٨٩٢ القى عظات الصوم الاربعيني في احدى كنائس رومة. فلما سمع احد الكرادلة قضي العجب من فصاحته الانتانة وحرارة لهجة فهتف : « لا غرو ان هذا الاب ولد في بهرة البركان فازوف ثم بمه الله الى انكثرة ليجرد فيها ! » ودعي سنة ١٨٩٨ الى جنوبي فرنسا فلقى فيها واعظ عديدة في انحاء شتى . وفي ختام احدى عظاته سبق واعلم الحضور بانتيه في ان يحذتهم يوم الاحد التالي عن القديسة مريم المجدلية. فبلغ الخبر سامع امير ولس ولي عيد انكثرة الذي صار بعد ذلك ملكاً وعرف بادوار السابع وكان يقضي الصيف في تلك الجهات فارسل شخصاً من حاشيته الى الاب يسأله : « هل يزعجك حضور الامير عظمتك على المجدلية فان هذا الموضع يميل اليه كل اليس ؟ » فاجابه الاب فون وفي جوابه من الجراءة

وحرة الفكر ما فيه : « قال لسوز اني وعظت ١٨ سنة امام سلطان السلاطين
فهيات ان يقتني امير ولس ! » ثم رجع الرسول في الاسبوع التالي وقال للواعظ :
« قد ارتاح الامير كل الارتياح الى عنتك فهو يلتمس نسخة منها ليطبها ويوزع
نسخها على اصدقائه » فلم ير الاب ثون مندوحة عن الرضوخ لرغبة الامير الذي نشر
العظة كما قال

ثم سنع ولي العهد بعد ذلك عظة القاها اليسوعي على آلام المسيح . فقال له :
« ابت لا بد لي من مصافحتك فان هذه اجود موعظة سمعتها في حياتي وقد جنيت
منها نفعاً لنفسي » . هكذا نشأت وبث المودة الحقيقية بين الاب ثون وامير ولس
فكان هذا يستدعيه حيناً بعد حين الى القصر الملكي ليحظى بأبيه ويستفيد من
حكيمته وحكمته . واما خلف والدته الملكة فيكتورية على العرش لم يغير شيئاً من
دأبه هذه على الراهب اليسوعي . ولا يزعم القارئ ان الاب ثون كان يتليل قلب
المامل العظيم بشي ولو يسير من التمليق . بل كان بعكس ذلك يرشده الى التوبة عن
آثامه وتقويم ما اعوج من آدابه . ففي ذات يوم كانا . اشين . ما فتروا ادوار السابع
وقال له فجأة : « ايها الاب فون انك تقول لي اشياء لا يحجر احد غيرك على قولها لي
ولذلك احبك »

الاب ثون في لندن - خطيب الجماهير ✠ أمر الاب ثون رؤسازد سنة ١٩٠١
ان يسكن احد اديرتنا في لندن فبقي هناك الى آخر حياته العاملة . فابث ان اشهر
فيها اذ نشرت احدي الجرائد البروتستانية سنة ١٩٠٢ الاكاذيب والشتم الماسة
لشرف الرهبنة اليسوعية . فانبرى الاب ثون للدفاع عنها ورفع الدعوى على الجريدة
الحسية فحكم ابيها مجلس القضاة بقرائة ثلاثمائة نيرة انكليزية فسد بثل ذلك
المبلغ نفقات المحاكمة

وكان صيت الاب فون يزيد كل يوم انتشاراً فيسابق الاساقفة الى استدعائه .
ففي اواخر ١٩٠٤ سافر الى رومة بصفة واعظ مختص لعظ اثنا . احتفالات
اليوبيل الذهبي لاعلان عقيدة الجبل بلا دنس

وفي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ التي سيات مواظ على « خطايا المجتسع » فاهتزت لما كل
طبقات الشعب ولاسيما العليا . وقد نشرت بعد ذلك وطبعت ١٤ طبعة حتى يومنا

هذا . فكان على مثال يوحنا المعمدان الذي بجسارة مقدسة أنب هيرودس على فجوره . وهكذا رفع الاب فون صورته في تلك المواضع وقرع الكابر الانكليزي رجلاً لاونساء ، على سيناتهم المحجوبة بين جدران التصور والمستورة بتيابهم الناعمة . وعلى نقانصهم الظاهرة لكل الاعين الداعية للجنة طبقات الشعب السفلي لهم . فكنت ترى اعضاء اشرف العائلات ، الكاثوليك بل البروتستان انفسهم ، يبادرون الى استماع اقواله الرشيدة على صرامتها والبيغة على بساطتها الصادرة من اعماق فؤاده المتهب بحب الانفس والمرشقة كالسهم الصائب الى قلوب سامعيه . وقد صدق فيه المثل القائل :

ان من القلب الى قلب دليلاً .

في ١٩٠٨ طفق الواعظ الشهير يخطب في فضائل ومآثر القديسة حنة درك التي كاد لها الانكليزي الف مكيدة ، كما هو معلوم ، واخيراً اعدمهها بالنار . . فيتضح من ذلك ان في اختيار هذا الموضوع المساس لشرف الأمة البريطانية جسارة عظيمة لم يكن يُقدم عليها سوى الاب فون وكان وقتئذ اشهر من فار على علم . اس في بلاده فقط بل في الخارج ايضاً . وقد كان لمطابه على القديسة الفرنسية الشهيرة رقع عجيبي في ائدة سامعيه . واذ خطب يوماً في هذا الموضوع على جماعة عديدة من السيدات الشريفات سكت جميعهن الدموع الغزيرة اثنا . خاتمة كلامه

وفي ١٩١٠ دُعي رسمياً ليخطب امام الالوف من المؤمنين الورددين من كل اقطار العالم لحضور المؤتمر القرباني الدولي في « نريال (كندا) . وبعد ذلك بتقليل نغني في اواخر ١٩١١ باشر سياحته الكبرى الى الولايات المتحدة واليابان والصين فاستغرقت ثمانية عشر شهراً والتي في خلالها نحو اربعمئة خطبة وكان يخطب غير مرة على آلاف من الحضور . ففي طوكيو عاصمة اليابان التي محاضرة على تلامذة الأشراف . وفي شنغ هاي بالصين فاه بعدة خطب في دار البلدية امام الجماهير المحتشدة لاستماعه . وكان مدة سياحته في الولايات المتحدة ، اذا ركب القطار ، رأى مخبري الجراندي والمجلات يهجمون عليه هجوماً في كل المحطات الكبرى وكثيراً ما كان يشاهد جنماً غفيراً منتظراً وصوله في هذه المحطات ومشتاقاً احراً للاشتياق الى التشع باقواله الرائعة والاستفادة منها . فلم يكن للزائر الشهير متدح من تلبية دعوة هذه الجماهير فانكبت قراء تلك الخطب المتعددة فضلاً عن اتعاب ذلك السفر الطويل

﴿ الاب فون في اثناء الحرب - يوبيله الذهبي ﴾ لم تحمد اثناء سني الحرب المشرومة الجفرة المتأججة في قلب رسول المسيح بل زادت ايجياً في تلك الاعوام العسية . فكننت تراه في الشوارع وارصة عطات السكك الحديدية فضلاً عن الكنائس والنوادي والمارح يلقي بل التحمس خطبه الشديدة الالهجة في ضرورة مواصلة القتال للدفاع عن حقوق الوطن المقدسة المدوسة تحت اقدام الالمان . وكان اذا بلغ انكلترة نعي الابطال الساقطين في ساحة الشرف ينبري بطيبة خاطر لتأبينهم تنوياً بوطنيتهم السامية وتغزوة لاقربانهم المفجوعين

وفي كانون الاول ١٩١٦ احتفل بيوبيله الذهبي فهطلت عليه التمانى وابلة من كل طبقات الشعب الانكليزي بل من كل اقطار العالم . وافته رسالة من قداسة الخبر الاعظم بندكتوس الخامس عشر الخالد الذكر يقول فيها : من صميم فزادنا نتحك نعمة المذبح المتقل لتلا تفاق عن تقديم ذبيحة خلاصنا من اجل ذاتك ومن اجل الكنيسة كاهما . وكتب اليه الرئيس العام لليسوعيين رسالة تهنئة مقرونة باعداء نية خمين قداساً

﴿ ايامه الاخيرة ﴾ على ان وطاة الشيخوخة - وكان قد جاوز السبعين - ما زالت تشد ثقلاً عليه والأرق التواتر ومرض البول السكرى . الا لا يزغزغان بيته القوية حتى هدمها ارتكاتها . فوصف له الاطباء مباشرة سياحة طويلة الى رأس الرجاء الصالح ترويحاً لباله وتغييراً للهواء . على انهم حظروا عليه القاء الحطب حرصاً منهم على البقية الباقية من قواه . فانتصح بنصيحتهم بيد انه لم يتمالك ان يحطب على الجماهير في بعض الظروف . فقبل مبارحته لمدينة الكاب تكلم على قداسة الزواج امام نحو ثلاثة آلاف شخص متبين الى كل الاديان

فع هذه الاشتال لم تات السياحة بالفائدة المرجوة . ولأ عاد الى الوطن احميب بضرب من الغالج فأرسله الرؤساء الى دير الابتداء في لندن . فقتضى شهره الاخيرة على فراش الآلام وهو يكاد لا يُفلت من يده ليلاً ولا نهاراً المصلوب الذي اهداه اياه قداسة البابا بيوس العاشر . وفي صباح ٣١ تشرين الاول ١٩٢٢ تناول القربان الانس كعادته وكان ارانشد . مالكا شوره ولو . متري بوهم شديد . وبعد نحو ساعة فاضت روحه الطاهرة العالمة فانقل الى رحمة مولاه بناية الهدو والطمانينة ذلك

الرجل الذي لم يكن اسقفاً ولا اختصاصياً بالمعلم لكنه عُرف في كل اصقاع البلاد الناطقة بالانكليزية وأمهات المختلفة كرجل الله ومحِب البشر وصديق الفقراء ومرشد الاغنياء، والواعظ البليغ الفريد المثال

٢ الخطيب المصقع والراهب الغيور

نرى في تحري اسرار فصاحة الاب فون فائدة غير يسيرة فن تلمذ ذلك الاستاذ في فن البلاغة أخذ عنه، ولا بدء شيئاً من مقدرة الغربية على التصرف بقلوب سامعيه وإماتها الى ما يشاء، وهذا الفن اذا استخدم لحض البعاد على انواع الخير والفضيلة ! ان في الصعائف الآتفة دليلاً ساطعاً على عجيب فصاحة الاب فون، والحق يقال انه لفي مقدمة ائمة الخطباء الذين تبخل بهم الدهور . من محبي آف الناس الجاهلين طريق آية كنيصة بل ننس الدين المسيحي الذين كانوا يسرعون مع ذلك الى عظامه في وسط الشوارع تحت اقبية الزرقاء ! دُعي مرة لوضع حجر الزاوية بكنيسة تُسرع في بنائها من مدة . فجرى هذا الاحتفال على ارتفاع البناء نحو ستة امتار فوق سطح الارض بجوار صقائل البنائين المنكبين على اشغالهم مع مساعدتهم غير المنفكين عن الذهب والاياب لتأدية خدمتهم . فانتصب الخطيب وحوله حلقة من السامعين لا تريد عن نحو ٢٥ شيخاً وخطب في ضرورة تشيد البيوت ولاسيما بيوت الله . فترقى في اساليب البلاغة واجاد وابدع وتحمس فصدق فيه مثلنا القائل : ان من البيان لسحراً . ففي ظريف بضع دقائق زالت جلبة البنائين واعوانهم فكانوا جميعهم آذاناً صاغية وقلوباً واعية كأن على رؤوسهم الطير . بل وقفت عن المسير عربات الترامواي وصعد كثير من الركاب الى اعلى مقفولاً لتلاوتهم لفظة واحدة من دُرر ذلك الواعظ المفود

ومع كل ذلك لم يكن الاب فون من الكتبة المتضلعين من اساليب الانكليزية والمتفتنين في التهاوير الانيقة المتكبرة بل كان في كثير من الاحوال يمدل عن مشاهي الى التماهير الشريفة المنبئة من التراموايس ، الدارحة فقط على ألسنة رعاع الشعب . وكثيراً ما شدد عليه التكبير اخوانه اليسوعيون في هذا الشأن فلم يعبأ بانتقاداتهم لاعتقاده ان النجم وسيلة لاجتذاب الشعب الى الدين والصالح است لباقة الكلام

بل بساطته ووضوحه وبالاجمال قربه الى الافهام . ولذا كان هو ، مع انه سليل
احدى اشرف العائلات ، يخاطب سفة القوم بالفاظ هي ذات الفاظهم المألوفة بينهم ،
فيوصيهم انه منهم ومولود بين اظهريهم . فيفتحون له ابواب قلوبهم على مصراعيها
ويشربون اقواله شرباً ولاسيا بعد ايقانهم انها صادرة عن فؤاد ماوة الحب لهم
والحنان على انواع بلاياهم والغيرة الشديدة على مصالحهم الابدية فضلاً عن الزمنية
ثم انه كان يتحاشى دائماً بسط الحقائق الدينية والادبية على غط فلسفي عميق
يميد عن اذهان العامة بل كان يكسرها ثوباً قشياً فتأناً من التشبيه الظريفة غير
البتذلة وينعشها بجمرة عواطفه الحماسية المضطربة ، فتضيق اقدسة السامعين بنفس
خفقات فؤاده ، فكانه العواد الماهر الذي يُجَيِّل لنا ان احابمه الرشقة تتلاعب
ليس باوتار عوده بل باوتار القلوب . فبجان الوهاب العظيم !

كان مبلغ ثوران عواطف الاب فون اثنا . عظاته - خصوصاً في بعض الظروف
الداعية الى ذلك - يكاد يفوق التصور . حيث كان على اثر نزوله من المنبر يُلقى
جسه المضطرب المهزوك على فراشه بعد خلع ثيابه المبالة بالمرق الصيب .
ثم لا يخفى على احد ان بين مزاج الاطفال الادبي ومزاج المتقدمين سناً من عامة
الناس شهاً غريباً . فكلا الفريقين مبولع بالقصد ولاسيا القريبة والتنوع الحوادث .
وقد انتبه الاب فون الى ذلك فكانت عظاته الشعب مشحونة بثقل تلك الروايات
الآخذة بمجامع القلوب . ولم يكن فقط قصاصاً لا يند له بل كان ذا قريحة عجيبة
التشيل (١) فن سمع يحكي حكاية توهم انه يشاهد كل الحوادث جارية امام
عينه وكل الاشخاص متحركة قدامه . ولا بدع فان الخليل كان يظهر امامك بظهور
كل من هو لاء الاشخاص ويدل نبرات صوتهم وتقلبات عيائهم حسب الظروف
وحركات جسمهم وسكناتهم وكيفية كلامهم وسكوتهم . فكان بتدبرته هذه المدهشة

(١) اراد الاب فون قبل كوك ان يعلم فن الآلهة على احد الاشارة في هذا الفن السير .
فطلب هذا اليه ان يلقى امامه قطعة من محفظة ليقتل على استعداد فقل الراهب . ولما انتهى
كلامه صف المنم : « واه الحق انك لأمر متي ! »

ومن الامور الشائعة في لندن ان كبار المسئولين والمسئلات كانوا يغمرون عظات الاب
فون ليأخذوا عنه بعض فتو القريب في التصرف بشئرات صوته وجملها موافقة لما يريد ابصاله
الى القلوب من الافكار والمواطف

يرتقي باسميه ارتقاءً سريعاً بغير عُنْف الى عالم الحقائق الدينية على طريق الحكايات الشائقة الكثيرة المعنى الوافرة المفزى

زِد على كل الصفات السابقة الذكر النادر اجتماعها حتى في اعظم الخطباء. انه كان لا يحجم في بعض المواقف عن انتدع بالفكاهات المستعنة المرذية به الى ضائته المشوذة. ففي ذات يوم كان يكشف القناع عن غباوة احد الزنادقة المتكرين وجود الباري عز وجل. فصرخ فبجأة: « اني اؤمن بوجود الاله الذي خلقَ المتروزل (اسم الزنديق) وليس بوجود الاله الذي خلقه المتروزل (يعني إله الماديين اي الطبيعة) ». مرة اخرى كان يشدد النكير على الملابس النسائية الخلاعية فقال في درج كلامه: « في الزمن القديم كانت عادة المرأة ان تلبس ثوباً خاصاً لتناول العشاء. امّا الآن فانها تتعزى فتسبب الدمار لجسما وروحها بل لروح القريب! »

تلك هي المزايا الجوهرية لبلاغة الاب فون بلاغة لم يكتبها من مطالعة الكتب بل كانت متصلة في غريزته فأتاها وأوصلها الى اوج الكمال بطول الممارسة والاختيار ومعاملة الناس. بلاغة لا تنسج له مكاناً وقيماً بين الادباء. بيد انها تجعله في مقدمة فطاحل الخطباء. القادرين حتى ارتجالاً على هز اوتار التلرب في اي مكان واي موضوع وبين أية طائفة من الناس. فن تسابل بين نوعي البلاغة المشار اليهما اتضح له من اول وهلة ان الثانية اعجب واندر من الاولى بدون قياس وإن لم تجارها في لباقة الكلام

٣ لمحة من فضائل الاب فون

يلتق بنا بعد تلخيص سيرة الاب فون والبحث عن اسرار فصاحته ان نذكر شيئاً من فضائله السامية فانه لم يكن خطيباً مصمماً فقط بل راجعاً قديماً. كفى شاهداً على ذلك تواضعه العميق واستخفافه بذاته مع انه كان من اعظم الرجال المشار اليهم باطراف البنان. بينما كان الناس على اختلاف طبقاتهم وتزعاتهم لسائناً واحداً في الثناء على بلاغته الزائفة كان يقول عن ذاته: « اني كلبُ الراعي (يعني المسيح) ليس الا. فيقول لي الرب: يا برزدوس اجمع اخراف حولي. فأركض هنا وهناك واتبع لآتي بها الى قدمي ارب. فيقول لي: قف يا برزدوس. فأورد الى حجري»

في ايامه الاخيرة قال له احد القراء : « لقد سلكت في الحياة مسلكاً جليلاً ، يا ابتي ، وسيت كثيراً في خدمة الله » فاجاب والدموع مل عينيه : « بل ان حياتي مشحونة بالتعاقب على اني اثق برضى الله عني ! »

هذا ولم يسبقه احد من اخوانه الرهبان في دقة قيامه بكل اوامر ونواهي القوانين الرهبانية . وكان يجب كل اخوته اليسوعيين محبة اخوية محضة وببذل النفس والنفس في خدمتهم ويظهر لطفاً خصوصياً لأدناهم مرتبة ومواهب . اما حبه للفقراء وحضار القوم فقد ضرب به المثل في كل أنحاء انكلترة . رأى مرة جماعة من القراء ذوي الثياب الرثة المكشطين في مؤخر الكنيسة لاستماعه في حين ان الاغنيا كانوا مرتاحين وعلى الربح فوق القاعد . فدعا القراء الى الدخول في الحورس ، ونعني في المجال الفاصل بين المذبح ومائدة تناول . فحقت اذ ذاك قول السيد المسيح « ويصير الاولون الآخريين والآخرون الاولين »

كثيراً ما كان الاب فون يلقى المحاضرات ليحث المثمن على بذل اموالهم في سبيل المدقمين فجمع من اجل هولاء مبالغ طائلة على هذا النسق . وقد اعتاد اثنا سكانه في لندن على الاقامة نحو يوم كل اسبوع في محل استأجره في احد اقمرا احيا . العاصم . فكان يخرج منه لايأ كثرنة وبطرشياً وامامه غلام حامل معلوباً كبيراً ويده جريس يدق لجمع الفقراء الذين لا شغل لهم ولا شاغل . فتى حادف مكاناً مناسباً وكثر فيه الصلوب وطفق يبشر هولاء السذج والمحتقرين باسمي الحقائق المسيحية . ثم يورد الى مسكنه الضيق ويطبخ بيده طعامه ويرجع في الغد الى ديره والى اشغاله المعتادة . والله وحده يعلم كم من النفوس ارشدها باتعابه هذه الى جادة اخلاص الابدي . فمن العجب العجاب ان الاب فون كان في آن واحد اشهر واعظم لعلية القوم ولرذالة الناس . بل الأعبج ان التريقين كاتا بدرجة واحدة اسيري فصاحته المستولية على كل القلوب

اخيراً ان الحجة الدامغة على قداسه انه كان يُعاني طول حياته بجنشوع وتقرى لا مزيد عليهما فكسب كم رآه اخوته اليسوعيون يجول في ممشى الدير ذهاباً واياباً وحبأت مسبحة الطويلة تتعاقب بين اصابعه وهو غائص في بحر التأمل باسرار القدا . السامية ! وكان في تقدمته النبيحة الالهية كانه على المنبر إذ يلفظ كل اقوال القداس

بجراحة شديدة ويشهها بالحركات الليتورجية الدالة مع بعض الافراط على اتقاده
عبادته
خلاصة القول ان الاب فون لم يكن فقط رجلاً عظيماً قديراً في عين الناس
بل راهباً قديماً في عين رب الناس. وان كانت العظمة الاولى تضمن له الخلود في
صفحات التاريخ فان الثانية قد استعنت له اكليلاً لا يزوي الى الابد في ملكوت
السموات

شعراء النصرانية بعد الاسلام

للأب لوريس شيخو البسوعي (تابع)

١١ جُحِيَّةُ بنِ الْمُضَرِّبِ الكِنْدِيِّ

هكذا كتب له صاحب الاغانى (٤: ١١٧-١١٨ و ١١٤: ٢١) و ضبطه بتقديم
الجيم المضمومة على الحاء المفتوحة. وفي الاشتقاق لابن دريد (ص ٢٢٢) كُتِبَ جُحِيَّةُ
بتقديم الحاء على الجيم ومثله في حماسة ابي تمام (ص ٥٢٢) وفي نوادر ابي زيد (ص ٥٣
و ٧٧). وكذلك روى المضرّب بفتح الراء المشددة. كان جُحِيَّةُ من اهل اليمن من
بني تميم من حي السكون من كندة جاهلياً ادرك الاسلام. وكان يدين بالنصرانية.
كما شهد عليه صاحب الاغانى (١٥: ٢١). وقد روى له هناك اخباراً قليلة يؤخذ
منها انه عاش الى أيام عمر بن الخطاب. ويؤخذ منها ايضاً ومن نوادر ابي زيد
(ص ٥٣) انه كان جُحِيَّةُ اخوان معدان ومنذر وكانت امرأته زينب من بنات عمه
له ولد منها يدعى حَرَطًا. وقال التبريزي في الجملة (ص ٦٨): «ويكنى ابا حوط
وهو شاعر جاملي وفارس مقدم حليف في بني ابي ربيعة بن ذهل بن شيان»
وقد افتتح ابو الفرج الاصبهاني اخبار جُحِيَّةُ بقصة القاسم بن محمد بن ابي بكر